

بدعة تفسير القرآن بالعلم

د. محمد رضا محرم

« موضة » العصر في التعامل مع القرآن الكريم ما يسميه البعض « التفسير العملي للقرآن » .

وهي تسمية فيها الكثير من الادعاء ، ويكفى أنها تحتكر لتيار تفسيري بعينه صفة « العلمية » ، بينما تنزعها – ولو بطريق غير مباشر – عن بقية مناهج التفسير .

ولو تجاوزنا عن الابتداع الخطير في محاولات هؤلاء ، وترفقنا بهم ، لقلنا أنهم يجتهدون لتفسير القرآن بالعلم .

ولو قلنا الحقيقة المجردة بشأن ممارساتهم التي تدعى التجديد فانهم « يفسرون القرآن بالجهل » ! .

فالعظمة الحقيقية ، والاعجاز المفحم في القرآن الكريم ، أنه كتاب عقيدة وتشريع ، محكم الآيات ، متسق الصياغة ، مطرد الدلالة ، لا تناقض فيه ولا اضطراب ولا اختلاف . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

أما أن يزعم البعض أن القرآن يحتوي الى جانب علوم الدين سائر علوم الدنيا ، فذلك تزيد في القول والفهم مردود ومرفوض . وهو بالاضافة الى كل ذلك اتجاه منحرف في التفسير له جذروه القديمة التي تضرب لعدة قرون خلت في حقل التراث الاسلامي . وليس يخفى هذا القديم ادعاءات التجديد أو الاقراط المعاصر في اخضاع الكثير من الآيات القرآنية لبعض معارف العلم الطبيعي المحدث .

وليس يصرفنا عن هذا الفهم أن يحتج البعض علينا بقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) . فالآية الكريمة ليست تعنى أن القرآن قد حوى كل العلوم والمعارف جملة وتفصيلا ، ولكنها تعنى اشتماله على أصول وضوابط عامة (كليات) يعمل الناس على أساس منها ويستهدون بها . أما التفاصيل والجزئيات فقد ترك الباب فيها مفتوحا للمجتهدين من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، يكيفوناه وفق مقتضيات الزمان الذي يعيشون فيه والمكان الذي يسعون عليه .

وفي كتاب بعنوان « الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم » يتحدث المرحوم الشهيد الشيخ محمد الذهبي (وزير الأوقاف المصري وأستاذ التفسير بجامعة الأزهر سابقا) عن قدم هذه الظاهرة في تراثنا التفسيري فيرد بداياتها الى عصر النهضة العلمية العباسية ، حيث ظهرت محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن وبين ما جد من العلوم . ويضيف فضيلته أن هذه النزعة وجدت مركزة وصريحة على لسان الامام أبي حامد الغزالي (في القرن الثاني عشر الميلادي) ومن سلك مسلكه من العلماء . فالغزالي ينقل عن بعض العلماء في كتابه « الاحياء » : أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، ان كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك الى أربعة أضعافه ان لكل كلمة ظاهر وباطن ، وحد ومطلع . كما أنه يقول : « ان كل ما أشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ، في القرآن اليه رموز ودلالات يختص أهل الفهم بدركها » . ثم طبقت الفكرة عمليا - ولا يزال الكلام للدكتور الذهبي - وظهرت في مثل محاولات الفخر الرازي ضمن تفسيره للقرآن ، ثم جدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم .

اسرائيليات معاصرة !

عندما كان للاخباريين والقصاص مكانة في نفوس الناس ، كانت تقولاتهم ، رغم خروجها على المؤلف ، تجد هوى في هذه النفوس . فكان البعض يفرط في الأخذ عنهم ، ولا يرد لهم قولا . ومن هنا فانه بعد عصر الصحابة (عصر التحوط والحرص والقرب من المصدر المصفى والمباشر للدعوة) ، ومع مقدم محور التابعين ، لصق بالقرآن من الروايات والقصص والاخبار ما لا يتصوره عقل ، وما لا يجوز أن يفسر به كتاب الله . وقد عرفت أغلب هذه المدسوسات بالاسرائيليات ، نظرا لارتباطها المباشر أو غير المباشر بمعارف السابقين من أهل الكتاب .

وعندما احتدم الصراع السياسي بين طوائف الأمة المسلمة ، راحت كل فرقة تصبغ موقفها السياسي بصبغة دينية لتفحم الفرقة (أو الفرق) المناوئة . وبحثت كل فرقة عن دعم قرآني لموقفها . ومن هنا ظهرت محاولات معتزلية ، وأخرى شيعية ، وغيرها خارجية ، بالاضافة الى محاولات السنة ، لتفسير القرآن .

ومع ازدهار حركة الترجمة والاطلاع والتعرف على الثقافات الأجنبية ، وبلوغها الأوج في بدايات العصر العباسي ، انتقلت أخلاط من التراث الصوفي الهندي والفلسفي اليوناني الى الثقافات العربية الاسلامية الصاعدة ، وراجت الأفكار التصوفية (المستوردة !) في العالم الاسلامي في منتصف القرن الثاني الهجري . وكان لا بد وأن تنتقل آثار كل هذه الدخائل الى تفسير القرآن الكريم ، فظهرت مناهج التفسير الصوفي النظري ، والتفسير الاشاري الفيزي ، وكلها اتجاهات تخرج بالقرآن - في الغالب - عن هدفه الذي يرمي اليه ، وتؤدي في النهاية الى خدمة الفلسفة والنظريات التصوفية ، دون أن تقدم للقرآن شيئا الا هذا التأويل الذي كله شر على الدين والحاد في آيات الله ، كما يقول المرحوم الشيخ الذهبي .

وفي عصرنا الحديث ظهرت للعلم سطوة وسيطرة ، وأصبح التمحك فيه والتمسح في اعتابه دليل استنارة وفهم ومعاصرة . ومن هنا كان انبعاث

وتضخم اتجاه قديم يبحث عن العلوم في صفحات المصاحف • واستهوت اللعبة
الكثيرين من أهل العلم الطبيعي ومن أهل العلم الشرعي على حد سواء •
واقترح الميدان كثيرون لا هم من هؤلاء ولا هم من أولئك •

وقد كان في الامكان التفاضي عن هذه الظاهرة القديمة المستحدثة -
بل والقبول بها - لو انها وقفت عند حدود المعقول ، واتبعت القصد في فهم
بعض آيات القرآن في ضوء منجزات العلم المعاصر دون مبالغة أو افتعال أو
تشويه للنص القرآني • ولكن أن تبلغ الأمور حدود الافتراط السفيه في الفهم ،
والتأويل المريض للنص ، والخلط القبيح بين الخرافة والعلم ، فدون ذلك
ويحتاج الأمر الى الوقفة الصادقة ، والعزمة الشجاعة ، خاصة من المسلمين
الدين حصلوا حظا وافرا من علوم الدنيا التي يمتطيها كثيرون بالادعاء دون
دربة وبغير تبصر ، والتي أوشك التوظيف السيئ لمعطياتها أن يملأ كتب
الدراسات القرآنية وأن يخلط محاولات التفسير الحديثة بالكثير مما يمكن
تسميته « الاسرائيليات المعاصرة ! » •

فرجل علم طبيعي ، يحمل درجة الدكتوراة ، ويهوى الحديث عن عوالم
الجن والملائكة الى حد تقديم احصاءات بأعداد قاطني هذه العوالم ! ، يؤمن
باتصال عالم الجن بعالم الانسان ، ويعتقد فيما يسمى بالمس ! ويتساءل عما
إذا كان هذا المس بالجسد أم بالروح ؟ ! • ولكونه - بحكم شهادته - رجل
علم فانه يقطع أن المس لا بد حادث بالروح ، ودليله العملي في هذا الشأن أن
الجان الذي خلق من نار لو مس انسانا بالجسد لأحرقه ! • مثل هذا الدكتور
المنتسب الى العلماء لا يخاطب بالمنطق العلمي لكنه يخاطب بمنطقه • والنصيحة
التي توجه اليه اذا التقى بواحد من أصدقائه - مهما كان مقدار شوقه اليه -
أن لا يأخذه في الأحضان والا غير ملابسه • فصديقه هذا انسان ، والانسان
خلقه الله من تراب • والويل له من مس صديقه اذا أصاب هذا الصديق بلل
من مياه المجاري في الشوارع ، أو نزل عليه عرق من زحام المواصلات فتحول
التراب الى طين ! •

وعالم دين في مصر ، محدث لبق ، كان ملء السمع والبصر في وقت
ما ، يحدث أن علماء الأرض والكيمياء قد قدموا الدليل على أن آدم مخلوق
من تراب • فبتحليل التراب وجد أنه يتكون من عناصر أساسية هي نفسها

العناصر المكونة للجسم البشري ! • وبمنطق العلم الطبيعي أتحدث الى رجل العلم الشرعي • فالتراب في مصطلحات العلوم ليس له تركيب كيميائي ثابت أو محدد ، ذلك لأن أي تجمع من الحبيبات الدقيقة للمعادن (المكونات الأساسية لصخور القشرة الأرضية) أيا كانت نوعياتها يمكن تسميته « ترابا » • وإذا قيل أن المقصود هو التراب المكون من معادن الطين بصفة أساسية ، فحسب علمي ، وأنا من أهل التخصص ، أن هذه المعادن تتركب كيميائيا من سليكات الألمنيوم المائية ، وحسب علمي أيضا ، وأرجو أن يردني الى الصواب أهل التخصص ، فإن السليكون والألمنيوم ليسا من المكونات الأساسية لجسم الانسان ! ، كما أن الكربون وهو أشهر العناصر المكونة لأجسامنا البشرية غائب تماما في معادن الطين تلك ! • فأني تراب هذا الذي يؤذينا عالمنا الفاضل به ، ويجرنا تحت سحاباته الى تفسير عملية الخلق الغيبية المعقدة (الدليل الأكبر على القدرة الالهية) بمعارفنا العلمية الساذجة ؟ ! • وبلغه أهل الشرع نسأله : أليس من الخطأ أن نخضع - ولو بغير قصد - خالق الناموس لفعل الناموس الذي هو من خلقه ، وأن نحاسب صانع القوانين بما نكتشفه نحن من هذه القوانين ؟ ! • • •

الاعيب المفسرين بالعلم !

الحرفية (أو التكنيك) في أعمال أنصار التفسير العلمي للقرآن ، تقوم على أساس من عدة مغالطات ، بعضها علمي ، وبعضها ديني •
★ ففي الجانب العلمي يتغافل هؤلاء عن التفاوت بين الفرضية ، والنظرية ، والقانون • فالقانون علاقة محددة تربط برباط الضرورة بين الظواهر أو بين عناصر الظاهرة الواحدة • أما النظرية فانها صياغة عامة (عمومية) لتفسير أسباب وكيفية حدوث الظواهر • في حين أن الفرضية تفسير أولي للظواهر يقوم على التخمين والمقولة حتى ولو لم يمكن اثباته • فالنظرية والفرضية كلاهما اذن قابل للتعدد وقابل للتغيير أيضا • وبالتالي فان في تفسير القرآن بهما تعريض له هو الآخر للتعدد والتبدل •

وقد يزعم مفسرونا المحدثون هؤلاء ، وهم قد فعلوها ، أنهم لا يستخدمون الا ما ثبتت صحته من مكتشفات العلم لتفسير القرآن . ولكن الملفت للنظر أن البعض ممن يقفون وراء هذا الزعم لا يستتكمف أن يفسر قول الله تعالى في سورة الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » باحدى الفرضيات البشرية التي تبحث في منشأ وأصل الكون ، وتزعم أنه بدأ في صورة غاز وأتربة ودخان يملأ الفضاء وينتشر فيه ، ثم راح يتكدس في بؤرات تحت تأثير الدوامات والجاذبية ليكون الأجرام السماوية والكواكب التي نراها ، وهذا يعني أن الأرض والسما كانتا متصلتين ثم فصل الله بينهما . . . فهل يجوز بناء هذا الاستنتاج الخطير على فرضية تقوم على التخمين ، كما أنها موضع خلاف شديد بين العلماء ؟ ! ولعلم هؤلاء ، مجرد علمهم ، فإن تلك الفرضية عن منشأ الأرض والأجرام السماوية الاخرى والتي تنسب الى « كانط ولا بلاس » هي من نبت منتصف القرن الثامن عشر ، وقد مهها كانط في كتيب له نشر في عام ١٧٥٥ م وتعامل معها لابلاس في وقت لاحق ، كما أنها معرضة لنقد علمي شديد وقاس ، بل هي في نظر العلم المعاصر فرضية ميتة . أكثر من هذا فقد لحقتها عشرات الفرضيات الأكثر قبولا من العالم المعاصر ومن بينها على سبيل المثال الا الحصر فرضيات شميدث ، وفاي ، وليجوندا ، وسي ، وأرهينوس ، وادجيورت ، وليتلون ، وكويبر ، وتشمبر لين ومولتن ، وجينز ، وجيوفري ، وكثيرين آخرين غيرهم . ولعلم هؤلاء أيضا ، ان كان العلم مقصدهم ، فإن المراجع الحديثة التي تبحث في منشأ الأرض وأصل الكون لا تستحي أن تعلن أن مسائل أصل الأرض وطبيعة الكون لم تحل بعد . واذا كان هذا هو الوضع الصحيح والصارخ لأشهر الاستخدامات المتعالة والتي توظف من أجل تفسيرات عصرية (!) للقرآن ، فكيف يكون الحال مع المستخدمات الأقل شهرة ، وكيف يكذب هؤلاء ويقولون أنهم لا يستخدمون في تفسير القرآن غير حقائق العلم ؟ ! .

وحتى لا يبقى البعض مصرا على امكانية استخدام القوانين العلمية في تفسير القرآن ، بوصفها أعلى معارف العلم المعاصر من ناحيتي الانضباط والقبول ، فاننا ننبه الى أن سمة العلم الحديث أنه نسبي ، وأن كل ما فيه

قابل للتغيير حتى القوانين ، ويكفي أن نذكرهم فقط بأن قوانين نيوتن التي تحكم حركة الاجسام صحيحة تماما من الناحية الشكلية ولكنها مبنية على التقريب الكبير اذا ما درست في اطار نظرية النسبية الخاصة .

★ أما في الجانب الديني فان مغالطات هؤلاء تبدأ بالتزويد والمبالغة والتعميم . فاذا صادفتهم آية تتحدث عن الشمس أو القمر أو النجوم فذلك دليل على تضمن القرآن علم الفلك . واذا قرءوا كلاما عن الجبال أقحموا علوم الجيولوجيا عليه . أما اذا تعاملوا مع نص عن الرياح ، والسحاب ، والماء ، والأنهار ، فذلك في عرفهم ووفق فهمهم فيض من علوم الرصد الجوي ، والنبات ، والحيوان ، والتغذية ، والري ، والهيدروليكا . الخ . ولعل من أطراف ما يذكر في هذا الصدد أن واحدا من الذين يسرفون في مسخ القرآن باسم العلم ، ويهوي (العصرية) ويتزى بأزيائها مفسرا ومتفلسفا ومهوما أيضا ، عندما عرضت له آيات من سورة الغاشية يقول فيها الحق تبارك وتعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » ، علق يقول بالحرف الواحد : « وهذه هي علوم الأحياء والفلك والجيولوجيا والجغرافيا كما نعرفها الآن » !! .

وهم أيضا يلجأون الى نزع الآيات القرآنية من سياقها ويسبئون تفسيرها حتى تلتقي مع هواهم . فعندما يتحدث الحق تبارك وتعالى عن مشاهد يوم القيامة ، يوم الفزع الأكبر ، حيث تتوقف القوانين الكونية وتتعطل النواميس ، ويصف الجبال التي يظنها الناس - من شدة الهول - ثابتة بأنها تمر مر السحاب ، فذلك في رأيهم دليل على اتفاق القرآن مع العلم الحديث في شأن دوران الأرض .

ثم انهم يلجأون أيضا الى التأويل السخيف (المعتسف) لصرف النص القرآني عن دلالة المباشرة ، كمثل زعم بعضهم بأن قوى الطرد المركزي وقوى الجاذبية هي الأعمدة غير المرئية التي ترفع السماء فوقنا والتي عناها الله تبارك وتعالى في قوله : « الله رفع السماوات بغير عمد ترونها » ، وكمثل زعم البعض الآخر أن القرآن سبق بالحديث عن امكانية انشطار (تحطيم) الذرة واطلاق طاقاتها الرهيبة حيث يصف الله نار جهنم في سورة الهمزة

« بالحطمة » ، أي التي تحطم الأجساد التي تلقى فيها .
وعندما يصل بنا تحليل ابتداعات هؤلاء الى هذا الحد ، فان سؤالا
حول الموقف الصحيح للمسلم المعاصر من الاشارات القرآنية الى المشاهد
المادية والظواهر الكونية قد يثار ، واذا أثير فلا به له من اجابة .

مشاهد الطبيعة في القرآن •

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »
(فصلت - ٥٣)

« قل سيروا الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »
(العنكبوت - ٢٠)

توجيه قرآني صريح باعتماد المشاهدة والنظر وسائل لادراك الابداع

في خلق الله •

فاذا أضفنا الى ذلك الدعوة المتكررة في كتاب الله للتفكير في الكثير من
مشاهد الكون التفصيلية التي تعرض للانسان في حياته اليومية ، كالليل
والنهار ، والسحاب والمطر ، والأنهار والبحار ، والأرض والجبال ،
والأنعام والابل ، والقمر والشمس ، ٠٠٠٠ الخ ، لأدركنا أن أحد المداخل
الى تأكيد الايمان أو تنميته أو ايقاظه يتمثل في المتابعة الواعية المتعلقة
المتدبرة للموجودات المادية في الكون •

وتوجيه القرآن - لمن يفقه - يؤكد أن البحث عن حقائق الكون ،
والقوانين التي تضبطه ، يتم بالسير في الأرض وبالنظر في الآفاق ، وليس
يتم بالنظر في آيات القرآن وسوره ، وتلك هي نقطة الخلاف الأولى
الأساسية مع الذين يزعمون أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين •

فاذا سرنا في الأرض ، ونظرنا في الآفاق ، وتحقق لنا بعض ما نقصده
من الكشف العلمية وتوصلنا الى تأكيد بعض النظريات أو القوانين التي
تفسر وتحكم الظواهر الطبيعية التي نراها أو نتعامل معها ، فمن وجهة النظر
الدينية ، نكون قد وصلنا الى موضع العظة والعبرة ، والتفتنا الى آيات
قدرة الله ودلائل وحدانيته • أما أن يلجأ البعض الى تجاوز هذا الهدف ،

واقابع الخداع والتحريف ، ومحاولة رد هذه المكتشفات - بأثر رجعي - الى القرآن ، والادعاء بأنها قد وردت فيه بكل خباياها وبكل تفاصيلها ، فذلك زعم يستحيل القبول به ، بل ويحرم السكوت عليه . وتلك هي نقطة الخلاف الأساسية الثانية مع أصحاب بدعة تفسير القرآن بالعلم .

ومنهج القرآن ، ومنطقه ، وأسلوبه في عرض المشاهد الكونية ، ترجع كلها ما أذهب اليه . فالقرآن باعتباره كتاب دعوة وهدى ، يوجه الحديث الى الناس كافة ، على اختلاف ثقافتهم ، وتفاوت الوعي لديهم ، وتنوع تخصصاتهم . ولما كانت العبرة والعظة والتسليم بقدرة الله وبالتالي وحدانيته هي الأمور المستهدفة من العرض القرآني ، فان ما يطرحه القرآن في هذا الصدد لا يعدو أن يكون مشاهدات يومية يدركها الجميع ، ولا تخفى عليهم لمحة الابداع فيها ، وليس في وسع أي منهم أن ينكر النظام المحكم الذي تجري على أساس منه . وليس يلزم أن يكون الانسان متخصصا أو باحثا أو حتى (متفذكاً) ليصل الى ادراك كل هذا أو بعضه .

ولنقف على سبيل المثال أمام قوله تعالى في سورة يس : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . مثل هذه الحقائق التي يعرضها القرآن في هذه الآيات لا يستدعي ادراكها ولا التسليم بها أن يكون الانسان على معرفة بعلم الفلك ، ولا بالقوانين التي تحكم حركة النجوم والكواكب ، ولا بنظام المجموعة الشمسية أو العلاقة بين أفراد هذه المجموعة ، ولا بدوران الأرض حول الشمس ، أو دوران القمر حول الأرض ، ولا بالأوضاع النسبية بين هؤلاء جميعا ، بكل ما يترتب عليها من تحولات الليل والنهار ، وتغير الصورة المرئية للقمر من بدر الى تربيع الى هلال فحاق الخ . وبالتالي فان اكتشافنا اللاحق للقوانين التي تحكم هذه الظواهر الكونية ، ليس يضيف شيئا الى مدلولات النص القرآني ، ما لم يتوفر قصد الافتعال . كما أنه ليس يزيد أو ينقص من الابهار الذي أصاب المؤمن الذي التفت الى هذه الظواهر . ذلك لأن العظمة في أية ظاهرة تتمثل في وجود الظاهرة ذاتها وليس في اكتشاف القانون الذي تقوم عليه .

ونأخذ مثالا توضيحيا آخر ، أكثر قربا من أفهام عامة الناس ، وأبعد ما يكون عن نطاق الخلاف بين العلماء . فالقرآن يصف شهد النحل بأن « فيه شفاء للناس » ، فخرج علينا البعض يدعي أن في هذا سبقا للقرآن في مجال الاكتشاف العلمي الطبي . ولكن الأمر ، في الحقيقة ، أبسط من هذا بكثير . فنتيجة استخدام عسل النحل تجربة يومية قحة يمكن لأناس كثيرين ، أطباء أو مطبيين أو حتى بشرا عاديين ، أن يتبينوها وأن يسجلوها كظاهرة غذائية طيبة وأن يستفيدوا منها . والقرآن إذ أوردها ضمن آياته لا يوردها لمجرد تسجيلها في حسابه أو في قائمة سبقه ، ولكن لبيان سبق فضل الله على خلقه من جهة ، ولحثهم على التفكير والتدبر والبحث عن الأسباب وراء ظواهر الكون وحقائقه من جهة ثانية . فعظمة الحق - جل وتبارك وعلا - تسبق بخلق الظاهرة ذاتها ووضع قوانينها ، أما عظمة الانسان ، الذي هو من روح الله ، فتلحق باكتشاف القوانين والأسباب والاستفادة ، من الظاهرة المسخرة له ومن أجله بقدرة الخالق جل شأنه .

والنتيجة المنطقية لكل ما تقدم أن المصادمة بين حقائق العلم وبين نصوص القرآن غير واردة . ذلك لأن القرآن قد اقتصر على توصيف الظواهر المادية والطبيعية والكونية ، بينما أحال ما يتعلق بتفسيرها أو تقنياتها الى التدبر والتعقل وما يشابههما من القدرات التي أودعها خلقه من بني الانسان . وحسب المسلم تمسكه بهذه القاعدة البسيطة ، حتى لا يجهد نفسه في غير نفع في مطاولة العلم بالقرآن ، أو تشويه القرآن بالعلم ، أو افتعال التوفيق بين نصوص القرآن الواضحة المباشرة وبين نظريات العلم المعقدة المتغيرة .